اتقوا غضبة الشعب!

للأستاذ محمود محمد شاكر

أجلت قضية مصر والسودان فى مجلس الأمن إلى يوم الثلاثاء التاسع من سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، بعد أن تمتعت بريطانيا بالخذلان الذى كان مثله أبعد شيء عن بالها منذ عشر سنوات وحسب . فقد تعودت بريطانيا أن تأمر أو تدسّ فيطاع أمرها أو دسُّها ، وتخرج ظافرة من كل معركة تدور بينها وبين أمة من الأمم التى ابتليت بشرها الذى لم تنطفىء له جمرة منذ نجمت قرون هذه الدولة فى تاريخ العالم الحديث . ونحن نسأل الله أن يتمّ الخيبة على هذه الدولة الطاغية بانهيار نظامها الاقتصادى ، ليخلص العالم من الأخطبوط الفاجر الذى ضمّ فى أحشائه وبين جوارحه دولا برمّتها من الهند إلى العراق إلى مصر والسودان إلى جنوب أفريقية — إلى عالم كان يتمدّح شعراؤها بأن الشمس لا تغيب عن ملكه ، وأنها هى التى حملت أمانة الجنس الأبيض و (عبء الرجل الأبيض) فى تحضير الأجناس الملونة ، أى استعبادها وظلمها ، وإغراء فرنسا وبلجيكا وهولندة وسواها من أقزام الدول باستعباد جزء من هذه الشعوب ، تسومها الخسف بكل نذالة تدخل فى طوق هذه الأمم .

إن مجلس الأمن هو اليوم بين اثنتين : إما أن يُشهد العالم كله على أنه أقيم على حق ، وأنه حافظٌ وازعٌ ينهى الطغاة عز الإيغال فى طغيانهم ، وإما أن يشهد العالم كله على أنه سوق حديثة للرقيق والنخاسة أقيمت لتتاجر بعباد الله بلاحياء ولاورع . فكان تأجيل قضية مصر فى هذه المرة ، بعد المناقشات التى دارت فيه دليلا على أن مصر والسودان قد استطاعت شيئاً ما أن توقظ طرفاً من ضمير هذا المجلس ، ومن ضمير الأمم التى اشتركت فيه ، واستطاعت أيضا أن تجعل بريطانيا مغمورة فى ركام الفضائح والفظائع التى ارتكبتها فى مصر والسودان ، والتى تصر على المضى فى ارتكابها بكل جرأة لا تستحى .

ونحن نحب أن نثنى ثناء خالصاً من قلوبنا على الرجل المصرى السودانى ، الذى لم يزعزعه تهديد بريطانيا وترويعها ، ولم ينل من قلبه الخوف ، ولم تثنه عن الهدف الأعظم حيَل ولا أشراك ولا جدال ولا تقرير ، فانطلق يبين عن أهداف مصر والسودان وعن حقوقها وعن البلاء الذى نزل بها بياناً شفى صدور المصريين والسودانيين جميعاً . إننى لم أعجب بهذا الرجل لأنه سياسى بارع ، ولا لأنه قانونى ضليع ، ولا لأنه خطيب مفوّه ، ولا لأنه رئيس حكومة — كلا بل لأنه أول رجل بعد أن ذهب مصطفى كامل — وقف وحده فى عرين الأسد البريطانى ليسمع الدنيا كلها أن هذا الأسد البريطانى قد اعتدى عليه وبغى وطغى وظلم وتجبر ، وفعل الأفاعيل الخسيسة التى أراد بها استعباد مصر والسودان . إنه الرجل المسئول الوحيد الذى قام فى مجلس دولى يطعن بريطانيا العظمى ! طعنا متداركا غير راحم ولامشفق ولا هياب ، وهو يعلم أنه يطعن بهذا الطعن دولا كثيرة من أعضاء هذا المجلس . لقد كان محمود فهمى النقراشى رجل مصر ، لأنه كان وطنياً يتكلم بلسان الجروح التى مزقت جسد أمته ، لا بلسان السياسى المحتال الذى يريد أن يرضى هذا ويتجنب غضب ذاك . وهذا وحده هو السر الأعظم الذى جعل قضية مصر والسودان أعظم قضية عرضت على مجلس الأمن وأخطرها ، وهذا وحده هو الذى أوقع التخاذل فى الصفوف التى جمعتها بريطانيا ، وظنت أنها سوف تنصرها فى باطلها نصراً مبيناً ترجع بعده مصر والسودان خاشعة خاضعة تحت ظلال الخذلان الذى أمّلت بريطانيا أننا سوف نمنى به .

لقد ضرب النقراشى مثلا خالداً فى تاريخ مصر الحديث ، فدل بذلك على أنه رجل يركن إليه فى ملمّات الأحداث . فقد مرت على مصر والسودان حقبة كان الذى يقول فيها بمثل الذى قاله النقراشى فى مجلس الأمن يعد رجلا مخبولا خيالياً تسخر منه الصحف والمجلات ، وتزدريه جماهير من المخدوعين ، ويتخذ هدفاً لكل دعابة تجرى بها ألسنة الهازلين من أحلاس النوادى والقهوات . إن هذا الرجل جدير بأن يرفع اسمه منذ اليوم إلى حيث لا تنال مكانه أسماء الدجالين والمخادعين والمنافقين الذين ظهروا فى تاريخ السياسة المصرية منذ سنة ١٩١٩ إلى يوم الناس هذا . فحسبه فخراً ومكانة أن يكون هو الذى استطاع أن يجمع إرادته وعزمه وحزمه ، فلم يصرفه خوف أو إغراء عن تحقيق كلمة

مصر والسودان الخالدة ، وعن إعلان هـذه الكلمة فى أرجاء الدنيا ، وهى : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » .

***

ويقابل هذا الرجل الصادق رجال آخرون من صنائع بريطانيا — كانوا من صنائعها القدماء منذ تحركت مصر والسودان فى سنة ١٩١٩ تطالب الدولة الباغية باستقلالها ، وتريق دماءها وتبذل مهجها ، ويأبى أحدهم فيكون سيفاً مسلولا على أعناق إخوانه المصريين يتعسف بهم عسف الجبار المارد ، وإن كان هو فى نفسه ليس بجبار ولا مارد إلا كما كان أبو حية يسمى قضيب الخشب الذى يحمله سيفاً هندوانياً — وإنما كان جبروته وتمرده يومئذ من جبروت بريطانيا وتمردها — فهو دمية تلعب بها لا أكثر ولا أقل .

لقد قام النقراشى يعلن ملأ الأمم فى نواحى الأرض ، أن هذه ساعة فاصلة فى تاريخ مصر والسودان ، وأنه قد عزم على طرد الانجليز من بلاده ، وأنه لن يقبل مهادنة ، ولا مفاوضة ولا مراوغة بعد اليوم ، وأن بلاده توشك أن تنفجر ، وأن البلاء على الأبواب لن يمنعه ضغط الدول الأعضاء فى مجلس الأمن ، وأن مصر والسودان قد أبت إلا طرد بريطانيا من بلادها كلها بلا مهلة ولا تريث ولا مواعيد . ووقف مندوب بريطانيا يصر إصرار البغاة الطغاة على أن المعاهدة تخول له احتلال أرضنا ، ويستدل مرة بعد أخرى بالذى كان فى مفاوضات صدقى — بيفن وكأنه يريد أن يقول إن صدقى قد قبل ما يأتى هذا الرجل — يعنى النقراشى — فينكره ويرفضه ، ويكذب على مصر والسودان فيدعى أنها تريد طرد بريطانيا وجلاءها جلاء تاماً ناجزاً عن أرض وادى النيل كله ، على غير ما تدل عليه مفاوضات صدقى — بيفن .

وفى خلال ذلك يقف صدقى باشا الذى اتخذته اليوم بريطانيا حجة على مصر ، ليقول إن خير الوسائل لنيل حقوق مصر والسودان من بريطانيا هى المفاوضة ، كأن هـذا الرجل لم يعلم بعد أنه ظل يروح ويغدو ويتلاعب هو وتتلاعب بريطانيا ، وكانت العاقبة أن أفضى الأمر به إلى الاستقالة ، بعد التكذيب الخبيث الذى كذبت به بريطانيا كل شىء قاله فى تفسير بروتوكول السودان . لقد كان العذر متسعاً لامرئ سواه إن قال بمثل الذى يقول به . ومتى يقول هذا الرجل هذا الكلام ؟ بقوله فى ساعة الحرب التى شنتها مصر والسودان على بريطانيا !

إننا لا نبالى كثيراً ولا قليلا بما يقوله هذا الرجل وأمثاله ، وليس من همنا أن نقف عنده لنفنده ، بل همنا أن نبين أن وراء كلامه معنى آخر ، هو أن بريطانيا لما أحست بتباشير الخذلان الذى سوف تناله فى مجلس الأمن ، وعرفت أنها لن تستطيع أن تواجه العالم بالأباطيل التى كانت تواجه بها المفاوضين فيرهبونها ويخشون بأسها ، فلجأت عندئذ إلى قدماء صنائعها فى وادى النيل ليخذلوا قلوب الناس ويخوفوهم ويوقعوا بينهم يبغونهم الفتنة ، ويكون ذلك فتاً فى عضد النقراشى ، وتمهيداً لانقلاب يحدثونه مرة أخرى بالقهر والتهديد ، وبخيانة من يستحلى موارد الخيانة لبلاده — لمال يناله ، أو جاه يحرزه ، أو أبهة يختال فيها ، أو أمل يمنى بإدراكه على يد بريطانيا صاحبة النعم الجزيلة والآلاء التى لا تنفد !

إن بريطانيا تبذل الآن كل جهدها فى رد مصر والسودان عن الطريق الذى لا طريق غيره لمن أراد أن ينال حقه ، وأن يجعل هذا الحق ذِكْراً مذكوراً فى قلوب الأبناء والأحفاد حتى لا تنطمس معالمه ، وحتى لا ينخدع الناس عنه بقليل مدلس عليهم كما حدث فى تاريخ مصر والسودان منذ سنة ١٩٢٤ إلى هذا اليوم ، حتى بلغ البلاء أن صار الناشئة يقولون : « مصر والسودان دولة مستقلة » ، وكلهم يعلم ويرى ويشهد بعينيه الغزاة فى ثيابهم يروحون ويغدون فى الشوارع والطرقات ، ويغشون دور الملاهى ويقيمون الدارس المادية لروح مصر والسودان فى قلب بلادنا ، ويحمون لصوص الأجانب ، وينصرونهم على أبناء البلاد بكل ما استطاعوا .

ومصر والسودان لن ترتد مرة أخرى إلى طريق « المفاوضة بين مصر وبريطانيا » ولن ترتد إلى تعليق مسألة السودان وجعلها مسألة قائمة على حيالها ، ولن ترتد إلى الاعتراف بالورقة الباطلة التى كتبت فى سنة ١٨٩٩ لتشرك بريطانيا مصر فى حكم السودان . فإذا كان صدقى باشا قد علم من الثقة الذى أوعز إليه أن هـذه الخطة هى الباقية ، وأنها هى التى ستصير إليها بعد

انهزامنا فى مجلس الأمن ، وأنه لا محيص لمصر والسودان من المفاوضة قبل الجلاء عن وادى النيل كله — فقد كذب الذى أوعز إليه بذلك . وليعلم صدقى باشا أن الرائد لا يكذب أهله ، وأننا نحن أصدق حديثاً من الذين يعتمد هو على حديثهم ، فمصر والسودان قد علمت اليوم علماً ليس بالظن أن مفاوضات صدقى — بيفن ، كانت زلة وقى الله شرها ، وأن الله سخر النقراشى ليقيل مصر والسودان من تلك العثرة المردية ، وأن مصر والسودان قد عزمت أمرها على أن لا تضع يدها فى يد بريطانيا ما دام لها على أرض وادى النيل ظل تستظل به أفاعيها ، وثعالبها ، ووحوشها — وصنائعها أيضاً .

وخير لصدقى باشا ومن كان على شاكلته أن يعلم أشياء كثيرة ، فلا يغرر بنفسه فى ممالك بريطانيا التى تطأ بأقدامها كل من يخدمها إذا رأت فى ذلك خيراً ينفعها . خير له أن يعلم أن الزمن الذى كان هو فيه أحد أبطال السياسة ، قد انقلب كله وذهب وعفى عليه الذى عفى على مآرب كثيرة . وخير له أن يعلم أن الجيل الذى يعيش فى هذه الأيام غير الجيل الذى كان يرهب سوط الجلاد ويخاف وشم السياط على أبدانه ، وخير له أن يعلم أن العلم القليل الذى كان يناله الرجل فيتبجح به ويخيل إليه أنه صار عقلا وحده ، قد حل محله عقل كثير لا قبل لأحد بدفعه بعد اليوم . وخير له أن يعلم أن الذرة التى تتوهج اليوم بالإخلاص لمصر والسودان ، خير من كل الدر القديم الذى زينته بريطانيا وملأت قلبه نعمة وجاهاً وسلطاناً ، وخير له أن يعلم أن دم أى صعلوك مصرى سودانى مخلص لبلاده ، قد صار أكرم على مصر والسودان من دماء السادة الذين سادوا بالخيانة والنفاق والخداع . وخير له أن يعلم فى أول ذلك كله وآخره أن احتقار مصر والسودان ، وازدراء هذا الشعب النبيل ووصمه بأنه لم يبلغ بعد المرتبة التى تخوله أن يتبوأ مكانه فى العزة والكرامة — لن ينفع بعد اليوم صاحبه والمتحدث به ، والعامل على تثبيته فى أذهان من يحدثهم . وخير له أن يعلم أنه لا يزيد على أن يكون فرداً من أفراد هذا الشعب لا أكثر .

ليس من همى مرة أخرى أن أتناول قول صدقى بالنقد أو التفنيد ، ولكن كل همى أن أدل ناساً من خلق الله الذى نبتت لحومهم ، وجرت دماؤهم ، وامتلأت بيوتهم خيراً من ماء النيل الذى يجمع مصر والسودان ، على أن شعب مصر والسودان قد حزم أمره على أن يستأصل شأفة الماضى كله ويقطع دابر المنافقين المختالين بغير سلطان أتاهم ، وأنه قد أجمع عزمه على أن يحطم سلاسل الاستعباد كلها ، وأنه لن يقف دون غايته رهبة أو رغبة ، وأنه عرف أن الساسة قد خدعوه زمناً طويلا ، فأيما سياسى من القدماء ، ممن كان من صنائع بريطانيا أو من المخدوعين بشرف بريطانيا ، تسول له شياطين نفسه بعد اليوم أن يظن أنه أهدى من النقراشى وأعظم وأقدر ، وأنه بالغ مالم يبلغه النقراشى بالمفاوضة والمساومة على حقوق مصر والسودان فمصيره أن ينال من بأس هذه الأمة الناهضة المتدفقة العارمة شراً كثيراً كان أحوط له أن يلوذ منه بملاذ كريم ، هو أن يستظل بظل الأمة التى ولدته وأنشأته وكرمته بالانتساب إليها فإذا أبى أحدهم إلا أن يطلب لنفسه مجداً بدعوة بلاده إلى المفاوضة أو خيانة بلاده بقبول عون بريطانيا له حتى يبلغ الوزارة كما بلغها بعضهم من قبل على أسنة الحراب البريطانية ، فإنه سيعلم يومئذ أن الشعب المصرى السودانى أشد منه ومن بريطانيا بأساً وقوة ومصابرة على الجلاد ، وسيعلم أنه قد قدر فخاب فامتحن امتحاناً شديداً كانت له عنه مندوحة .

أيها الساسة القدماء ! احذروا غضبة الشعب ، فلكل شعب غضبة كالنار المشتعلة تأكل الأخضر واليابس ، وهذا أوان غضبة مصر والسودان بعد أن يئس الثرى بيننا وبين بريطانيا ...

محمود محمد شاكر

إعلان

تقبل العطاءات بإدارة المخازن والمشتريات بوزارة الزراعة بالدقى لغاية الساعة الحادية عشر صباح يوم ١٥/٩/١٩٤٧ عن توريد ٤٠٠٠ رطل سلفات نيكوتين لقسم وقاية المزروعات . وثمن النسخة من الشروط والمواصفات ٣٠ مليما بخلاف ٣٠ مليما أجرة البريد . ٧٨٦٩